جهود السادة الصوفية

في خدمة الحديث النبوي رواية ودراية

أعده الفقير الحقير

عدنان بن عبد الله زُهار

كان الله له آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حفظ القرآن الكريم من الزيادة والنقصان، وحفظ للقرآن سنةَ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حفظَ المُبيِّن للبيان، واصطفى من صفوة خلقه رجالا متقنين، خدموا سنة نبيه عليه الصلاة والسلام مخلصين، فنفوا عنها افتراء المفترين وانتحال المبطلين، فكانوا في الأمة شامة العابدين، ومنزل أنوار الهادي الأمين، إذ هم الذين حفظوا ألفاظه الشريفة، وبأرواحهم اختلطت سيرته المنيفة.

وأشهد ألا إله إلا الله الكريم المنان، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا النبي العدنان.

فاللهم صل على الغيث المدرار، ومركز دائرة الأنوار، حقيقة الحقائق وسر الأسرار، وعلى الآل والأزواج الأطهار، والصحابة الكرام الأبرار، والتابعين ومن تبعهم إلى يوم القرار.

وبعد،

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ الحجة أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي رحمه الله قال في "شرف أصحاب الحديث"[1]: حُدِثتُ عن عبد العزيز بن جعفر الفقيه ، قال : حدثنا أبو بكر الخلال ، قال : قرأت على زهير بن صالح بن أحمد ، قال : حدثنا مُهَنَّا وهو ابن يحيى قال : سألت أحمد يعني ابن حنبل عن حديث مُعَانِ بن رِفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين » فقلت لأحمد : كأنه كلام موضوع قال : لا ، هو صحيح. فقلت: ممن سمعته أنت؟ قال : من غير واحد . قلت : من هم؟ قال : حدثني به مسكين ، إلا أنه يقول: معان، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد : معان بن رفاعة، لا بأس به.

[1] ص 15

وقد رُوِيَ هذا الحديث من طرق كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه وعبد الله بن عمر رضي الله عنه وعن غيرهما، وهو حديث صحيح لغيره.

أما العلم المشار إليه في هذا الخبر فهو علم النبوة لفظا ووصفا وفعلا، وإن لم يكن الصوفية هم المقصودون بالعدول فمن يكون غيرُهم؟

فإنما دار حديثهم واتفقت كلمتهم ووقع اتفاقهم على تحصيل العدالة في الظاهر والتحقق بها في الباطن مع إخلاص وصدق ويقين.

وجهودهم في خدمة سنة محبوبهم وقرةِ عيونهم ومصباحِ سيرهم من باب "السماءُ فوقنا"، فليس ينكر جهد أهل الله في الانتصار للسنة وحمياتها من الدخيل، وصونها من التغيير والتبديل إلا من ينكر ضوء الشمس في رابعة النهار:

الشمس حق والعيون نواظر لكنها تخفى على العميان

ولكن، لما كان للسادةِ الصوفيةِ رضي الله عنهم نظرةٌ دقيقةٌ في العلم النبوي المرقوم، ومذهب خاص على ما عرفه منه أهل الرسوم، لا من حيث التحملُ والأداءُ والرواية، ولا من جهة الفهم والفقه والدراية، ظنَّ من حُجِب عن الحق، وزُيِّف له الباطل فخاله الصدق، أنهم أعداء علم السنن والآثار، وجهال بالأحاديث والأسانيد والأخبار، و ما درى المسكين أن على أكتافهم حُمل الإرث المحمدي، وفي صدورهم وقر العلم الأحمدي، ولولاهم ما كان للحديث إسناد ولا طريق، ولا عرف لألفاظ الأخبار تحقيق.

[أسباب الإنكار على السادة الصوفية]

وهذه بعضُ الأسباب التي كانت وراءَ نكران جميل السادة الصوفية، واعتنائهم بالسنن النبوية:

1. أنهم رضي الله عنهم كان أكبر اهتمامهم النفس البشرية والأحوال العرفانية والمقامات الإحسانية والمنازل النورانية، وهي المادة التي طغت على موائد اجتماعاتهم، وسُفَر رباطاتهم، وموضوعات تأليفاتهم وتصنيفاتهم، وأما علم الحديث النبوي رواية ودراية فهو عندهم وسيلة وصول، وسبب لحصول المأمول، فغايتهم الله ورسوله، وهمُّهم الحق وبلوغُه. فلم يطغَ على مجالسهم وكتبهم الإسناد والرواية، ولا الحديث في الرجال وطرق الدراية، فظنَّ المحجوب أن أفئدتهم منه خالية، وسيَرَهم عن تحصيله نائية؛ والحق أنهم اهتموا بالوصول عن الموصِل، وبالعطية عن المركوب والمطية.

2. أنهم عبروا عن علومهم بلغة خاصة بهم، وبلَّغوا معلومهم بعبارات صادقةٍ لهم، اختلفت عباراتهم عن تعبيرات المحدثين، وأنشؤوا ألفاظا وصيغا لم يشاركهم فيها غيرهم من الباحثين. قال شيخ الإسلام المخزومي[1]: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم ورأى أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنة، وأما بالإشاعة عنهم فلا يجوز الإنكار عليهم. وكان يقول أيضا: فبالجملة، فأول ما يحق على المنكِر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم أن يعرف سبعين أمرا ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار، منها: . . .ثم قال بعد أن ذكرها: فمن لم يعرف مرادهم كيف يحل كلامهم أو ينكر عليهم بما ليس من مرادهم.اهـ المقصود منه.

3. أن منهم من حدَّث عن قلبه عن ربه مباشرة دون احتياج للوسائط ولا مرورا بالأسانيد، وصحَّح كثيرٌ منهم أحاديث عن طريق الكشف والتحديث، مما لا يسلِّمُ به المخالف، ولربما حدَّثوا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة، مما ينكره أهل العناد والغفلة. فالتصحيح عن طريق الكشف والإلهام، وهو مذهب معتبر عند السادة الصوفية وأنكره عليهم أهل الظاهر، وقد نقله العجلوني في" كشف الخفا" وأقره واعتمده، وكذا الحافظ الغماري في "المغير" و"البرهان الجلي" . . .

[1] "اليواقيت والجواهر"ص 12

بل قعدوا لهذه الطريقة قواعد وحدوا لها حدودا، فقد قال الإمام سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني في "الفص المختوم شرح سورة الضحى"[1]: "إن الوحي قد يكون للأولياء كما يكون للأنبياء إلا في التشريع، ومن ذلك: تصحيحهم وتضعيفهم للأحاديث التي يراها غيرهم بخلاف ذلك.اهـ

ثم إن الحكم على الأخبار عن طريق الكشف البحث فيه من أصول أخرى اختلف فيها أهل الظاهر مع أرباب السلوك والكشف...منها: مسألة رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاجتماع به يقظة، والتي ألف في الانتصار إليها وإثباتها عقلا وشرعا جمع من أهل العلم، منهم الحافظ السيوطي في "تنوير الحلك برؤية النبي والملك"...وتكلم في جوازها جمع غفير – أيضا – منهم شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي في "الفتاوى الحديثية" وغيره...

ومن تلك المسا ئل التي هي أصل الخلاف في مذهب الحكم على الأحاديث بالكشف والإلهام: الخلاف في حدود الإلهام والكشف والتحديث والتكليم، التي وردت الأحاديث الصحيحة الصريحة في أن الله يكرم بعض أوليائه بذلك، والتي هي صريح دليل السادة الصوفية في جواز تكذيب صحيح الأخبار بما حُدثوا به أو كشف لهم.

[اهتمامهم بالحديث النبوي على طريقة أهل الحديث]

---

1 مخطوط ورقة 4

ومع ذلك، فإن السادة الصوفية رضي الله عنهم، شرقا وغربا، ما كان لهم ليخرجوا عن ضوابط أهل الصناعة الحديثية، ولا ليستأثروا بمنهج خاص يعارض القواعد الاصطلاحية، فاختصاصهم ببعض القواعد والطرق لا ينفي عنهم اتباعهم واعتمادهم منهج أهل الحديث، ولا يجوِّزُ إنكار إسهاماتهم الكبرى وأعمالهم الجلى في القديم والحديث.

بل لو نظرنا إلى القرون المتأخرة التي ساد فيها التعصب المذهبي، وأناخ الناس مطايا عقولهم على أبواب آراء مقلَّديهم ممن سبقهم، وغُلِّقَت الأفهام عن اعتماد الحديث والاهتمام بالإسناد، وراح الفقهاء ينكرون الوقوف على الأخبار والاعتماد على الآثار، سنرى في المقابل محاججة الصوفية لهم بضرورة النظر في السنن والاهتمام بعلم الحديث، بل لم تقرأ الكتب المسندة إلا في زواياهم، ولم يرحل لطلب علو الأسانيد إلا رجالاتهم.

قال الإمام سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني رحمه الله في "سلم الارتقاء"[1]: وأزيدك أن العِلْمين الجليلين الفاضلين المهمين الذين هما مراد الشارع من تربية العالم، وهما الحديث وعلم الرياضة، صارا كالمنسوخين اليوم. أما علم الحديث فلا تجد قائلا به، إذا استدللت بحديث لأحد على جزئية من الجزئيات اغتاض كأنك أتيت من الدين ما لم يأذن به الله، وعارضك هو بكلام حكيم من الحكماء، أو إمام من الأئمة. أَبعدَ علم رسول الله المؤَيَّد بالوحي السماوي، علمِ الذي منزله كان مستراحا لملائكة السماء، وتطؤه الملائكة صباحا ومساء، فهو المبين عن الله حقيقة، ومكنون العبادة التي خلقت الجن والإنس إليها .اهـ

ثم قال: فإن قلت: وتتحاشى رتبة الإمام عن ألا يطلع على الحديث؟ قلت: قدمتُ أن علم الحديث بضاعة الناس فيه مزجاة، فهذا عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الملازم لبساط الوحي إذا جاز خفاء الحديث عليه فكيف بغيره؟

---

[1] ص 157

وقال القطب الشعراني في "العهود المحمدية"[1]:أُخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا نتهور في رواية الحديث، بل نتثبت في رواية كل حديث نرويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا نرويه عنه إلا إن كان لنا به رواية صحيحة.

وكان سيدي علي الخواص يقول: لا ينبغي لفقيه أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثا إلا إن كان له به علامةٌ يعرف بها أن ذلك من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إما من طريق النقل وإما من طريق سؤاله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك الحديث، وقوله: هو من كلامي يقظة ومشافهة، هذا كله فيما كان ضعيفا من طريق النقل، أما ما صح من طريق المحدثين واستحسن فلا يحتاج إلى سؤاله صلى الله عليه وآله وسلم فيه.

فاعلم يا أخي أن أكثر من يقع في خيانة هذا العهد المتصوفة الذين لا قدم لهم في الطريق، فربما رووا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس من كلامه لعدم ذوقهم وعدم فرقانهم بين كلام النبوة وكلام غيرها، ولو أنهم كانوا من العارفين لعرفوا كلام النبوة وميزوه من غيره، فإن لامعة نور النبوة لا تخفى على من في قلبه نور. وقد سمعتُ بعضهم يحكي قول أبي محمد الكتاني[2]: رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت له: يا رسول الله ادع الله لي ألا يميت قلبي. فقال: قل كلَّ يومٍ أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت، وهي رؤية منام فصار هذا يرويه عنه على إيهام أنه صلى الله عليه وآله وسلم قاله لأصحابه، ورواه عنه الأئمة الحفاظ وهو وهم فاحش، فلولا أنني أعلمته بذلك ما علمه.

---

[1] ص 508

2 الكتاني العارف الزاهد الضرير، أبو محمد عبد الله، خادم أبي القاسم القباري.

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول: إنما قال بعض المحدثين أكذب الناس الصالحون، لغلبة سلامة بواطنهم فيظنون بالناس الخير وأنهم لا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمرادهم بالصالحين المتعبدون الذين لا غ وص لهم في علم البلاغة فلا يفرقون بين كلام النبوة وغيره، بخلاف العارفين فإنهم لا يخفى عليهم ذلك حتى إن بعضهم كان يعرف صوت الشريف من غيره من وراء حجاب لكونه من رائحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.اهـ

وقد منَّ الله علي بتمييز كلام النبوة من غيره من حيث حلاوةُ التركيب العلمي فإنه لا أحد يقدر على فصاحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فربما سمع الصحابي شيئًا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذهب عنه حفظ بعض اللفظ والمعنى موفورٌ في قلبه فيُكمل لنا الحديث بلفظه هو فأعرفه بركاكة تركيبه، وربما ظن بع ض المحدثين أن ذلك الحديث موضوع، والحال أن الوضع إنما هو في مثل لفظة ونحوها وأصلُ الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فتعلَّمْ يا أخي علم الحديث لتخرج من الوقوع في الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولو بغير قصد، والله تعالى أعلم.اهـ

وليس هذا فقط بل الصوفية المحققون مهتمون بالأحاديث وإن خالها أهل الحديث ضعيفة ما دامت جارية في مدار فضائل الأعمال.

قال القطب الشعراني في "إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين"[1]: ومنها أن يقبل على العمل بأحاديث الفضائل كلها ولو قيل بضعف سندها، فإنها لا تخرج عن الشريعة، حتى الأحاديث الموضوعة، فإنه لولا شعاع الشريعة يشهد لها ما اهتدى الواضعُ لمعرفة اسم ذلك الحكم الذي وضع فيه الحديث فضلا عن دليله، وتأمل

[1] ص 179

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا سبق إلا في خف أو حافر"[1]، كيف زاد الواضع لبعض الخلفاء "أو جناح" حين كان يسابق بالطيور، فلولا ذكر الخف والحافر ما اهتدى لذكر الجناح.

وكذلك لولا ما ورد من فضائل السور والأدعية ما وضع الواضعون في ذلك شيئًا لعدم شيء يقيسون عليه، أما الموضوع المفضول فضلا عما دونه فلا يعبأ به، فما بقي عليه –أي الواضع للفاضل من الأعمال– من لوم إلا في عزو ذلك اللفظ بخصوصه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا غير، فحكم الحديث الموضوع في العمل حكمُ أقوال المجتهدين المأخوذةِ من شعاع الشريعة سواءٌ.اهـ

قلت: وبالجملة فلا ينكَر للصوفية حبهم لسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجهدهم ومجاهدتهم لخدمة شريعته، وصون حديثه، بل وخدمة الشريعة إجمالا، فإن من شروط الدخول في طريقتهم التبحرَ في علم الشريعة، بما فيها علم الحديث النبوي.

قال القطب الشعراني في "الكوكب الشاهق"[2]: ومن أخلاق المريدين الصادقين ألا يطلب أحدُهم الدخول في طريق القوم إلا بعد تبحره في علوم الشريعة، حتى يؤذن له إلى أمر آخر عما هو فيه. . .

وبلغنا عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي أنه كان يقول: من لم يتبحر في علوم الشريعة حتى يصير يقطع أكابر العلماء بالحجج الواضحة في مجلس المناظرة فلا يطلبْ صحبتّنا .اهـ

[نقطة من بحر خدمتهم للحديث رواية]

---

[1] رواه الترمذي في "سننه" ح1700، وأبو داود في "سننه" ح2574 كلاهما عن أبي هريرة وعندهما "أو نصل".

[2] ص13



عمدةُ علم الحديث الإسنادُ، ورحم الله ابن المبارك الذي قال: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل له: مَن حدثك؟ بقي.

وقد روى مسلم في "مقدمة الصحيح"[1] عن ابن سيرين أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وروى عن ابن المبارك أنه كان يقول: بيننا وبين القوم قوائم. -أي الإسناد-.

ولذلك اهتم علماء الأمة وحماة الملة بالإسناد فيما كان رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أحدٍ من أصحابه، فنظروا في الرجا ل واهتموا بالاتصال والسماع واللقاء، وأخرجوا الأحاديث وكتبوا الأسانيد، وجهدوا واجتهدوا، ليخلص الحديث الشريف من السقيم، ويتميز ضعيفه من السليم.

والناظر في كتب الرواية و الأسانيد يلحظ وجود السادة الصوفية جليا، وهم القوم الذين اهتموا بعلم التربية والخلوة والسلوك والانقطاع و... لكنه حديث خير الخلق وعين الحق، أفتراهم يدَعونه، من غير الجهاد دونه؟ فنظرة على قطرة من بحر جهودهم، انطلاقا من نقاط معينة:

*الأسانيد

*كتب السنن (الإخراج)

*نقد الرواة

*التخريج

*المصطلح الحديثي

---

[1] 16/1

*الصناعة الحديثية

*أسانيد المتأخرين ورواة الكتب التسعة

[حضور الصوفية في أسانيد كتب السنن]

فإن الكتب التي جمعت سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم القولية والفعلية والتقريرية والتي منها الصحاح والسنن والمعاجم والمسانيد والأجزاء والمصنفات والتواريخ وغيرها من الكتب المسندة لا تخلو من رواة صوفية، منهم من كا ن في أعلى درجات الضبط والإتقان تحملا وأداء، ومنهم المتوسط في ذلك، ومنهم من لم يكن هنالك، أما الاتهام بالكذب فحاشاهم أن ينسبوا إليه إلا من اتهام كذاب فشار. وهذه بعض أسماء أولئك الرواة مُرتبةً حسب الحروف الهجائية من باب التمثيل، أما الاستقصاء فدوننا وإياه خرط القتاد.

أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي الكبير

أحمد بن الحسين بن إسحاق الصوفي الصغير

أحمد بن عبد الملك بن علي بن أحمد النيسابوري المؤذن أبو صالح

أحمد بن محمد الماليني أبو سعد

أحمد بن يحيى بن زكريا الأودي أبو جعفر الكوفي

حاتم الأصم

الحسن بن محمد القرشي التيمي البكري

الحسن بن منصور أبو علوية

الحسن بن منصور بن إبراهيم البغدادي الشطوي أبو علي

رياح بن عمرو القيسي أبو المهاصر

سعيد بن أبي سعيد العيا ر

سعيد بن العباس أبو عثمان

عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان

عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي الكسناني

عبد الله بن المبارك

محمد بن أحمد بن أبي بكر الأبيوردي أبو الفتح

محمد بن الحسين شيخ الصوفية

محمد بن صالح بن عبد الرحمن البغدادي أبو بكر الأنماطي

محمد بن عبد الرحمن بن محمد المسعودي الخراساني

موسى أبو عمران الصوفي

يحيى بن أيوب الزاهد

يحيى بن معاذ الرازي

فمدار روايات كثيرة في الكتب المسندة التي هي أمهات كتب السنة على هؤلاء وأمثالهم ممن انتسبوا إلى الطريق، فمن هؤلاء مَن بلغوا درجة الحافظ وأكثرهم محدثون ثقات معتبرون في الرواية، وما الذين ذكروا إلا أنموذج عن الذين جمع الله لهم بين الرواية والفهم والدراية.

[اشتغال السادة الصوفية بالتصنيف في رواية الحديث]

لا يخفى على باحث أن من المحدثين من كان يعقد مجالس الإسماع والتحديث يجتمع عليهم طلاب الحديث ورواته فيكتبون عنهم ويحفظون فيُخرِجون ويروون، ومنهم من كان يزيد على ذلك كتابة الحديث وتبويبه وتهذيبه.

فمنهم مَن جرد في تصنيفه الصحيح المحض كالبخاري ومسلم وابن السكن والحاكم وابن الجارود وابن خزيمة وابن حبان، ومنهم من زاد عليه كلَّ مقبول من حسن وضعيف معتبر أو ضعيف معمول به كأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي والدارقطني وغيرهم، ومنهم من رتب مجموع مسموعاته ترتيبا يرتضيه كمن جمعهم على أسماء الصحابة كأحمد بن حنبل والبزار والطبراني في "المعجم الكبير" وابن الأعرابي والفريابي، أو من رتبهم على أسماء شيوخه كالطبراني في "الأوسط" و"الصغير" وكثير غيره، إلخ إبداعاتهم رحمهم الله في جمع الحديث وطرق التصنيف في الروايات والأسانيد.

والسادة الصوفية رضي الله عنهم اشتغلوا ببعض ذلك واهتموا له وأخرجوا أحاديث مسندة من طريقهم في مصنفات سارت بها الركبان، واتُّكل عليها في الاعتبارات، كالشواهد والمتابعات، بل في أعلى الأسانيد والروايات، واهتموا رضي الله عنهم بأغلب طرق الإخراج المعروفة عند المحدثين.

وها أنا ذاكر بعضَ البعضِ من تلك الكتب الأمهات التي هي من إنتاج السادات، وما ذلك بالاستقصاء، إلا أن الملاحَظ اهتمامهم بالتصنيف في مادة فنهم وجوهر علمهم وهو الآداب والأخلاق والطريق والسلوك وغيرها:

-فمنهم أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي الحافظ المحدث الورع الزاهد الصوفي شيخ الصوفية وعالمها بخراسان وصاحب الكرامات والتصانيف التي بلغت مائةً، منها: "الفتوة"، و"أدب الصحبة" والأربعون في التصوف" وله "طبقات الصوفية" أسند فيه بعض الأحاديث.

-ومنهم أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني الحافظ الحجة ذو التآليف المفيدة والتصانيف الفريدة، منها وعلى رأسها والتي لم يُنسَج على منوالها كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" الذي إن شئت أن تجعله كتاب جرح وتعديل فليكن، أو كتاب رواية السنن فهو كذلك، أو كتاب تراجم فليس مَن بعده إلا عالة عليه، أو كتابا في الصناعة ومعرفة العلل فهو رأس في كل ذلك.

وله أيضا كتب أخرى كـ"تثبيت الرؤيا لله" و"مستخرج على الصحيح" وله "الطب النبوي" و"فضل العلم" و"فضل سورة الإخلاص" و"الأربعون في التصوف" و"دلائل النبوة" و"معرفة الصحابة" و"تاريخ أصبهان" و"معجم الشيوخ" و"طرق حديث إن لله تسعة وتسعين اسما" وغير ذلك من الشائع الذائع الماتع.

- ومنهم أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن خالد السلمي النيسابوري، الزاهد العابد شيخ الصوفية -وهو جد أبي عبد الرحمن السلمي ومن رجال الرسالة القشيرية، له جزءُ حديثي مسند.

- ومنهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الذي ألف دستور الصوفية وهو الشهير ب"الرسالة" وفيه روايات أخرجها بأسانيده.

-ومنهم الحافظ أبو بكر الآجري صاحب التصانيف منها كتاب "الشريعة في السنة" كبير، وكتاب "الرؤية"، وكتاب "الغرباء"، وكتاب "الأربعين"، وكتاب "الثمانين"، وكتاب "آداب العلماء"، و كتاب "مسألة الطائفين"، وكتاب "التهجد"، وغير ذلك.

-ومنهم العلامة المحدث أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، مصنف "كتاب المجالسة" وهو من أنفس التآليف في بابه.

-ومنهم الحافظ الكبير الحكيم الترمذي صاحب كتاب "نوادر الأصول" وله "ختم الأولياء" .

-ومنهم شهاب الدين أبو حفص عمر السُّهرَوردي الذي صنف ثاني دستور الصوفية وهو كتاب مسند معتمد وهو "عوارف المعارف" .

وغيرهم كثير جدا .

[الصوفية ونقد الرواة]

يقوم علم الحديث على ركن أساس وهو الرواة، والنظر في أحوالهم له مجاله الخاص ورجاله المتخصصون، وهو علم الجرح والتعديل.

وقد عُرف أن هذا العلم الخوض فيه خوضٌ في أعراض الرواة وأحوالهم من حيث العدالة والفسق وما تفرع عن ذلك.

كما أنه تأكد من خلال النظر في أقوال النقاد للرواة أنهم ربما ضعفوا الثقة وربما وثقوا الضعيف وربما كذبوا الصادق وصدقوا الكاذب، وهذا كثير في أقوالهم وتصانيفهم، ولم يسلم كبارهم من تأثير العصبية المذهبية في نقد راوٍ ما، حتى إنهم ضعفوا مثل البخاري لا لسبب إلا الاختلاف في المعتقد، وضعف بعضُهم مالكا وقال فيه كلاما غليظا .

ولما كان الأمر هكذا بهذه الحساسية الخلقية، خاف السادة الصوفية على أنفسهم من أن تُحبطَ أعمالهم بالتعرض لأعراض غيرهم من حملة العلم النبوي، فكانوا رضي الله عنهم قليلي الحديث عن أحوال الرواة، ولم يكن لهم شغف بالنقد لأحوالهم وحكاية ما قيل عنهم، مع وجود أسباب كثيرة للحكم على الغير بغير الحق. فلذلك تجد حضورهم شبه منعدم في ساحة الجرح والتعديل، خاصةً من متقدميهم، ومع ذلك كان بعضُهم يحكي من الأقوال ما يجد عليه دليلا لا في التوثيق ولا في التجريح مع لطف عبارة واحتياط شديد، كعادتهم رضي الله عنهم في احتياطهم لدينهم وأخلاقهم.

نقل الحافظ الذهبي في "الموقظة"[1] عن الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد قوله في هذا الباب: منه الخلل الواقع بسبب عدم الورع والأخذ بالتوهم والقرائن التي قد تتخلف، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "الظن أكذب الحديث" فلا بد من العلم والتقوى في الجرح، فلصعوبة اجتماع هذه الشرائط في المزكين عظم خطر الجرح والتعديل.اهـ

ومع ذلك اعتنى بعض الصوفية الأخيار بنقد رواة الأخبار والكلام عن أحوالهم ورحلاتهم في الأمصار، متى اقتضى الأمر ذلك، كأبي نعيم، والحكيم الترمذي والدينوري والحارث المحاسبي وعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وغيرهم...

[التّخريج واعتناء السادة الصوفية به]

اا تخريج هو أن يعمد المحدث إلى حديث معيَّن فيحيله على من رواه بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من طريق صحابي ما، في كتاب من كتب الرواية والإسناد، مع حكمه على الحديث صحةً أو ضعفا.

وأولُ مَن ألف في أصوله وطرقه الحافظ الكبير مجدد علم الحديث في القرن الرابع عشر الإمام المجتهد سيدي أحمد بن سيدي محمد بن الصديق الغماري رضي الله عنه، كتابه الموسوم "حصول التفريج بأصول التخريج".

ولعلماء الصوفية اعتناء بهذا العلم، حيث إن فيه من الفوائد ما يضمن به بقاء الحديث النبوي بين الناس ولو ضاعت أصوله، ويعرف صحيح الحديث من ضعيفه ومعرفة الطرق والأسانيد.

---

[1] ص 88

هذا وإذا ذكر علم التخريج بين الحفاظ فإنهم لا يمكنهم الاستغناء ولا إنكار فضل ومنة إمام حافظ حجة مجدد صوفي شاذلي أشعري شافعي رضي زكي الإمام جلال الدين السيوطي رضي الله عنه، مؤلف "جمع الجوامع" المسمى "الجامع الكبير"، ومختصره "الجامع الصغير"، وقد قالوا: إن للسيوطي منةً على العالمين بكتابيه هذين.

وقد استدرك عليه مئات الأحاديث على شرطه الحافظ الإمامُ الصوفي الشهير سيدي أبو العلاء إدريس بن محمد العراقي الفاسي، كما استدرك عليه الحافظ الغماري أحاديث على غير شرطه أوردها في جزء "المغير" واستدرك على الأخير شقيقُه المحدث الحجة سيدي عبد العزيز الغماري أحاديث على شرطه في جزء "المشير"، وهكذا السادة الصوفية لهم منن على الخلق في علمي الظاهر والباطن. ولله المنة سبحانه.

وللحافظ يوسف بن عبد الله الزيلعي الصوفيِّ كتب أمهات في التخريج على رأسها "نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية" في الفقه الحنفي، وقد قال أهل الشأن فيه إن كلَّ من صنف في التخريج بعده عالةٌ عليه، وله في بابه أيضا كتاب "تخريج أحاديث الكشاف" أي تفسير الزمخشري.

وخرج الإمام العلامة المحدث الصوفي الكبير عبد الرؤوف المناوي أيضا أحاديث "تفسير البيضاوي" وهو نفيس للغاية.

ومنها كتاب "المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح" لقاضي القضاة صدر الدين أبي المعالي محمد بن إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن السلمي المناوي.

وللأشقاء الثلاثة محدثي المغرب الصوفية الشاذلية الدرقاوية سيدي أحمد وسيدي عبد الله وسيدي عبد العزيز أبناء الصديق خبرةٌ بعلم التخريج واعتناء به، فقد أخرج الحافظ أحمد كتاب "بداية ابن رشد" وأخرج "عوارف المعارف" وأخرج "شمائل الترمذي" وغير ذلك، وللمحدث المفيد سيدي عبد الله تخريج لطيف على

"المنهاج" للبيضاوي في الأصول، ولسيدي عبد العزيز تخريج أحاديث "إيقاظ الهمم" لسيدي أحمد بن عجيبة. وغير ذلك. . .

[المصطلح الحديثي وجهود السادة الصوفية]

علم المصطلح هو العلم الذي يضبط قواعد علم الحديث وأصوله، وقد تفنن العلماء في التصنيف فيه، بعدما كان أول من ألف فيه الحافظ الرامهرمزي كتابه "المحدث الفاصل".

لكن الصوفية اهتموا بالتقعيد لعلوم الحديث اهتمامَهم بسائر علومه وفنونه، فمن ذلك وأهم ما هنالك كتاب "المقدمة في علوم الحديث" الذي هو معول أهل الفن وكلُّ ما صُنّف في المصطلح بعده إما شرح عليه أو استدراك أو تنكيت أو مبنيٌّ عليه، وهو للإمام الحافظ أبي عمرو عثمان ابن الصلاح، أحد لابسي الخرقة الصوفية ومُلبِسها، وقد ذكر أسانيدها من طريقه إلى الإمام القشيري والجنيد ابن الملقن في "طبقات الأولياء"[1].

وممن اهتم بالمصطلح الحديثي وألف فيه من ساداتنا عالم الزهاد وزاهد العلماء الإمام النووي رحمه الله في كتابه الذي اختصر فيه وهذب علوم ابن الصلاح الموسوم ب "التقريب".

وعليه عمل إمام الشاذلية الحافظ السيوطي شرحه الكبير المستوفي وهو "تدريب الراوي"، وللسيوطي أيضا ألفية في المصطلح فاقت ألفية العراقي.

ولشيخ الإسلام العلامة الهمام المحقق المدقق زكريا الأنصاري كتب نفيسة في علم الحديث عليها المعول وإليها المرجع منها "فتح الباقي شرح ألفية العراقي" وهي مما لم يصنف مثله في الجمع والتهذيب.

وأما "نخبة الفكَر" للحافظ ابن حجر –الذي قيل إنه تراجع عن موقفه من التصوف والسادة الصوفية في آخر عمره– فقد اشتغل عليها جماعةٌ منهم، كالشيخ أبي الإمداد سيدي إبراهيم بن إبراهيم اللقاني الصوفي

---

[1] ص 80

الأشعري الذي كتب عليها حاشية سماها "قضاء الوطر من نزهة النظر"، كما أن لسيدنا الشيخ العلامة عبد الرؤوف المناوي شرحا سماه "اليواقيت والدرر في شرح شرح نخبة الفكر"، ومنهم محدث المغرب وإمامه أبو حامد سيدي العربي بن أبي المحاسن سيدي يوسف بن محمد الفاسي دارا ولقبا القصري أصلا الفهري نسبا، وله شرح سماه : "عقد الدرر في نظم نخبة الفكر"، وله عليها شرح، وله أيضا منظومة مختصرة في ألقاب الحديث سماها في آخرها ب"الطرفة" وعليها شرح لأبي عبد الله سيدي محمد (فتحا) ابن شيخ الإسلام أبي محمد عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي. وقد صنف شيخُ الإسلام ومجدد الدين سيدي محمد بن سيدي جعفر الكتاني "الرسالة المستطرفة في بيان مشهور كتب السنة المشرفة" أوعب فيها وأتى بكل جديد شكلا وموضوعا، والناس عيال عليه في باب رسالته، وقد أملى عليها تلميذه الحافظ أحمد الغماري استدراكات لطيفة ضمنها كتابه "الأمالي المستظرفة على الرسالة المستطرفة". وغير ذلك مما لا يحصى...

[المرجع في أسانيد المتأخرين ورواياتهم إلى السادة الصوفية]

بعدما ضمت أغلب الأحاديث في كتب الرواية المسندة وانقطعت الرواية بعد القرن الخامس كما قرره جماعةٌ من المحدثين، حتى قيل إن كل من أتى بحديث لا يوجد في مسانيد القرون الخمسة الأولى فهو موضوع جزما أو لا أصل له، لكن مع ذلك بقي الاهتمام بالرحلة في طلب الحديث لا لسماع جديد بل لطلب علوٍّ في إسناد أو إغراب في طريق أو تكثير شيوخ السماع، وكلُّ ذلك مما حفظت به السنن وعرفت به الطرق...

وقد اعتنى السادة الصوفية بجمع الأسانيد بعد رحلاتهم الطويلة للبحث والتنقيب، فصنفوا في المشيخات والمسلسلات والبرامج والفهارس وغيرها...

فالمشيخات، وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم أو أجازوه وإن لم يلقهم، اهتم بها جماعةٌ منهم على رأسهم الحافظ المتقن الرحالة أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلفي الأصفهاني "سمعها من

خلائق بعدة مدائن جمع فيها الجم الغفير مع فوائد لا تحصى وجملتها يزيد على مائة جزء"[1]. ومنها "مشيخة الإمام القاضي عياض بن موسى" ذكر فيها مائة ترجمة من تراجم شيوخه وبعض مروياته عنهم وهي المسماة بكتاب "الغنية"، ومنها " مشيخة الشيخ شهاب الدين السهروردي الشافعي الصوفي صاحب كتاب "عوارف المعارف"...

وأما الفهارس فالصوفية سادة ميدانه وفرسان حلباته، وإذا ذكرت في المتأخرين فالجامع فيها "فهرس الفهارس" للحافظ العلامة المتقن الرحلة سيدي عبد الحي بن سيدي عبد الكبير الكتاني، أعجوبة الدهر وفريد الزمان، ومَن مِن الذين بعده كتب في الحديث وتاريخه والرواية وطرقها ولَم يُعرج عليه؟

[جهود السادة الصوفية في الصناعة الحديثية]

الصناعة الحديثية هي الجانب التطبيقي لقواعد الحديث المذكورة في كتب المصطلح، وإنما تظهر براعة المحدث وسعة اطلاعه بمعرفته للعلل الخفية والطرق الاعتبارية ومعرفته بالرجال وتواريخهم وأنسابهم وسماعاتهم.

والناظر في كتب الصناعة يلمح الحضور الصوفي في هذا الفن. وحسبنا أن نذكر من ذلك أحدَ المتأخرين ممن جمع الله له بين علمي الحقيقة والشريعة، ذلكم هو الحافظ المغوار الذي لا يشق له في فنه غبار الإمام المحدث سيدي أحمد بن سيدي محمد بن الصديق الغماري، فله من الكتب في الصناعة الحديثية ما لم يأت بمثلها غيرُه، وله استدراكات على كبار حفاظ الأمة ما لا يستطيعه سواه، ولْنذكر من ذلك كتابه "فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي"، الذي أقول: إنه جدَّد فيه قواعد علم الحديث، وحسبك بحافظ يستدرك على يحيى بن معين وابن مهدي وابن حنبل والأعمش والشعبي وأضرابهم... وخُذ أيضا كتابه "درءُ الضعف عن حديث من عشق فعف" وله استدراكات لطيفة دقيقة جمعها في كتاب سماه "ليس كذلك في الاستدراك على الحفاظ"، وله

---

[1] كما في "الرسالة المستطرفة" لسيدي محمد بن جعفر الكتاني ص 155

السفر الضخم "المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحَيْ المناوي"، وهو الذي قال في حقه شقيقُه المحدث الألمعي سيدي عبد الله ابن الصديق: مَن أراد صناعة الحديث فعليه ب"المداوي".

وكذلك الشيخ الإمام سيدي عبد الحي الكتاني الحافظ الحجة كان متقنا في الصناعة الحديثية وله في ذلك رسائل وأجزاء وكتب وأسفار سارت بها الركبان، وقد كنت وقفت على رسالة له في "استحباب وضع اليد على الرأس عند قراءة أواخر سورة الحشر" ذكر فيها فوائد حديثية كثيرة ونفيسة وناقش أسانيد وطرقا على طريقة الحفاظ المتقدمين.

ولا يمكن لباحث أن يحيط بجهود السادة الصوفية في علم الصناعة الحديثية ومعرفة العلل وما ذكرنا عنوان على ما لا نستطيع حصره، والله ولي التوفيق.

[نقطة من فيض جهودهم في الحديث دراية]

يهتم ساداتنا الصوفية من نصوص الشريعة بالفهم الصحيح والاستنباط السديد، ومبدؤهم في التعامل مع نصوص الوحي اختراق صور الألفاظ والغوص في معاني دقيق العبارات، ولذلك اهتموا بتفسير القرآن تفسيرا يليق بوجدانهم ويتماشى مع فتحهم وكشفهم وذوقهم وقربهم، وكذلك مع الحديث النبوي، فلم يقفوا على مجرد الرواية ولم ينحصر انشغالهم بالتحمل والأداء بل بالدراية، فشروحاتهم لكتب السنن أو لحديث معين كثيرة غزيرة متميزة ممتعة رضي الله عنهم، وقد اعتمدها الخاص والعام، ورضي بها الخصم والصديق.

فمن ذلك شرح مختصر البخاري للإمام الصوفي الشهير ابن أبي جمرة وهو أحد من اعتمدهم الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"، وشرح ابن أبي جمرة فريد في بابه، ومن ذلك أيضا صاحب المنة على السيوطي كما قيل، الإمام عبد الرؤوف المناوي الذي عمل على الجامع الصغير شرحين كبير وهو "فيض القدير" وصغير وهو "التيسير"، وهما معتمدان مع زيادات كثيرة في العلل ومعرفة الرجال.

وللإمام القاضي عياض رضي الله عنه كتاب "إكمال المعلم" وهو شرح مكمل لشرح المازري على "صحيح مسلم" المسمى "المعلم بفوائد مسلم"، واقتفى أثرَه جماعةٌ من محدثي وفقهاء الصوفية كالإمام الأُبِي في كتابه

"إكمال إكمال المعلم" والصفاقسي في كتابه "مكمل إكمال الإكمال"، ولأبي العباس القرطبي كتاب على مسلم أيضا اسمه "المفُهِم" وهو مختصر مفيد معتمد عند الحافظ ابن حجر.

والإمامُ ابن حجر معتمد في مواطن كثيرة من شرحه على الإمام الحجة الداودي الذي يشير غليه بالشارح مرارا ولولاه ما كان له ذكر مع اعتراضات عليه منها المقبول ومنها المردود.

والحافظ السيوطي شرحان على الصحيحين، وله على السنن شروح مشهورة معروفة، وللإمام محتسب السادة الصوفية وعالمهم سيدي أحمد زروق صاحب "القواعد في التصوف" كتاب رائق رائع على صحيح البخاري اسمه "التعليق والتنقيح على الجامع الصحيح"، وللشيخ الشبيهي شرح على البخاري اسمه "الفجر الساطع شرح الصحيح الجامع"...

ولهم في ذلك فنون، كعقدهم في زواياهم ورباطاتهم ختمات الكتب المسندة، أشهرها ختمات البخاري، ومن أهمها ختمة الشيخ الإمام المجدد الشهير سيدي محمد بن سيدي عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه وهي مطبوعة على الحجر، كثيرة العلم غزيرة الفائدة ويوجد في المغرب الآن[1] شيخٌ معمر حضرها واستجاز الشيخ الإمام فيها.

ولهم ختمات على الموطأ ومسلم وكتب السنن في المغرب العربي والمشرق.

قلت: وهل تجمَّع الناس لقراءة كتب الصحاح والسنن وغيرها من كتب السنة المشرفة إلا في مجالس الصوفية؟ وهل شرحت كتب السنة ودُرّست إلا في زواياهم؟

فالتاريخ شاهد، ووثائق المكتبات حاضرة، ونقولات أهل العلم عن السادة الكرام واضحة، بل لنا أن نقول إن الله حفظ السنة بالصوفية، لِمَ لا وأشد تعلقهم بصاحبها النبي الأمين صلى الله عليه وآله وسلم؟

[1] يعني إلى حدود 17 جمادى الأولى 1429/23 ماي 2008

ولذلك قال الحافظ الغماري رحمه الله في "الأجوبة الصارفة لإشكال حديث الطائفة"[1]: إذا علمت هذا تعلم أن ما قاله الأئمة والعلماء في تعيين الطائفة بأنهم العلماء أو المحدثون أو المجتهدون أو أهل السنة والجماعة أو الصوفية، أقوال متفقة غير مختلفة، إذا كانوا بالوصف الذي ذكرناه؛ فإن العالم على الحقيقة على العرف والاصطلاح هو الذي يعرف الحق بدليله، وذلك لا يكون إلا مع الاجتهاد وهو لا يُتصور إلا بمعرفة الحديث، ولا يكون مَن جمع هذه الشروط إلا من أهل السنة والجماعة لأنه ليس في القرآن والحديث إلا الحق الذي هو المقصود بمذهب السنة والجماعة،. ومن جمَع هذه الشروط كلَّها فهو الصوفي، لأن الصوفيَّ هو العامل بعلمه على وجه الإخلاص، ولا زائد على هذا أصلا، إلا نتيجةَ ذلك الإخلاص من أنوار ومعارف وكرامات يُظهرها الله تعالى على عبده ببركة إخلاصه في العمل بعلمه، إذا تخلفت هذه الشروط انعدمت تلك الأوصاف، وخرج أهلها أن يكونوا من الطائفة الظاهرين على الحق لأنهم ظاهرون بالباطل، وهذا ظاهر لا خفاء به، والحمد لله.اهـ

[إلماعة خاتمة]

الذي ذكرتُ ولو ذكرتُ أضعاف أضعافه ما هو إلا كما قال العلامة الشبراوي:

كَنِسبَة قطرة يَوما أَضيفَت   إلى بَحر عَظيم أَو بُحور

نعم، فما جهود أهل الله الأخيار والصوفية الأبرار لخدمة الشريعة عموما وسنة الهادي خصوصا بالتي تجمعها الأوراق أو تكتبها الأقلام ولو كان البحر لها مدادا .

وإنما أحوَجَنا مَن لا علم له لبيان ما هو كالشمس في ضحاها وتأكيد الذي هو كالنهار إذا جلاها .

فعلوم الحديث وسيلة الملهوف، للفهم عن الله والرسول، وهو قرة عينِ الموحدين وغاية المتعبدين، ولذلك اهتم السادات الصوفية بفنونه واهتبلوا بتحصيله وتخصصوا في تصنيف أصوله، وعلماء الرسوم في ذلك عالةٌ عليهم وتلامذةٌ بين أيديهم .

---

[1] ص 83

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بعلوم أهل الله ويجعلنا ممن نظروا إليهم بعين الرضى حتى يرضى عنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبرضا الحبيب يرضى رب الأرباب وإله العالمين والحمد لله رب العلمين.

خادم الأعتاب

الفقير الحقير

عدنان بن عبد الله زُهار

عامله الله بلطفه في الدارين

آمين

تمَّ تسويدُه عشية يوم الجمعة 17 جمادى الأولى عام 1429 هـ/الموافق ل 23 ماي 2008 م